الملاحظات

نزلت "سورة النصح" في بغداد باللغة العربية في حق السيد جعفر اليزدي، رجل الدين البارز وصاحب المنزلة الرفيعة بين أهالي يزد. اعتنق الدين بعد زيارة وحيد إلى يزد بقصد تبليغ أمر حضرة الباب. بعد وقت قصير اضطر هو ووحيد وبعض المؤمنين لمغادرة يزد إلى نيريز في مقاطعة فارْس على أثر موجة الاضطهادات التي تفاقمت.

تمتع السيد جعفر بمكانة مرموقة كرجل دين لديه مقدرة مدهشة على التبيين والتفسير. وبتوجيهات وحيد بدأ في نشر الدعوة علنا في نيريز، ولم يمض وقت طويل حتى انضم إلى المؤمنين من أتباع حضرة الباب جمع غفير مما أثار غضب السلطات ورجال الدين وأثار من حولهم هياجا شديدا تسبب في استشهاد الكثيرين من بينهم وحيد.

رفع راية التحريض في هذه الأحداث الرهيبة حاكم نيريز زين العابدين خان الذي أسر بعضا ممن بقوا على قيد الحياة من البابيين، وعزم على تعذيبهم حتى الموت متعللا بشتى الأسباب، ومن بين هؤلاء كان السيد جعفر الذي حمله الحاكم

مسؤولية كبرى في تحويل الناس للدين الجديد بعلمه وقوة حجته. وقد سجل المؤرخ البهائي الشهير النبيل الأعظم النبذة التالية حول اعتقال السيد جعفر:

"وكان من بين هؤلاء (الناجين من ملحمة نيريز) السيد جعفر اليزدي الذي كان في الأيام السابقة ذا نفوذ كبير محترما من الجميع. وكان احترامه بالغا الحد الذي جعل زين العابدين خان يفضله على نفسه ويعامله بالاحترام الزائد. ولكنه أمر بأن تداس عمامته وتلقى في النار. وإذ تجرد من سيماء الشرف سيروه في الطريق أمام أعين الجمهور الذي مشى أمامه وانهالت عليه الشتائم والإهانة والسخرية."(١٥)

تبعت ملحمة نيريز، التي دامت عدة أشهر، ويلات من الفاقة والمجاعة في كل مكان. ففرقة الجند التي اشتركت في القتال اعتمدت كليا على مصادر الطعام الضئيلة المتوفرة لأهالي البلدة والتي نفدت في النهاية، وبعد مغادرة الفرقة أصبح الطعام بعيد المنال وعانى الكثير من الفقراء من الجوع. في ذلك الوقت اختزن الحاكم كميات من الذرة لبيعها للناس فيما بعد بثمن باهظ، ولكنه وافق بعد تفاقم الأزمة على توزيع الذرة بسعر رمزي.

وعند توزيع المؤن كانوا يحضرون السيد جعفر من زنزانته ويربطونه إلى عمود عند مدخل المخزن وتقضي أوامر الحاكم أن كل من يرغب في الحصول على حصته من الذرة عليه أولا أن يبصق في وجه السيد جعفر، ومن لم يفعل حرم نفسه من المؤن.

تكشف لنا الفقرة التالية من تاريخ حياة السيد جعفر بعضا من صنوف التعذيب والإهانات التي انصبت عليه مع رفيقه السجين الحاج محمد تقي، تلك الشخصية البارزة في نيريز من أتباع الباب المتحمسين:

يقف السيد جعفر، رجل العلم المبجل هذا وبطل دين الله الصنديد، لساعات وساعات عند باب المخزن يتلقى بوجهه الجليل البصقات من مئات الرجال والنساء وهم يمرون عبر الباب ويمطرونه بنظراتهم المليئة بشديد الحقد والتعصب.
وأمام هذا الإذلال المهين لم ترتسم على وجهه للحظة من اللحظات أية علامة من علامات الاشمئزاز، أو الاستنكار، أو الاستياء تجاه الآخرين، بل على العكس ظل هادئا راضيا طوال معاناته ولم يظهر منه سوى المحبة والسرور، شاكرا أولئك الذين أصابوه بالأذى.

ويروي مصدر موثوق آخر بعض مواقفه أثناء تلك المحنة. فذات مرة لاحظ السيد جعفر نفرا من الناس يترددون في القدوم لأخذ نصيبهم من الحبوب، وكان

من الظاهر أنهم لم يستسيغوا الاشتراك في عمل مشين كهذا فأحجموا عن الدخول، فما كان من السيد جعفر إلا أن يدعوهم ووجهه يشع بشرا سماويا إلى التقدم قائلا: يحسن بكم أن تتقدموا لتأخذوا نصيبكم قبل ضياع الفرصة، فلا بأس إن بصقتم على وجهي، لأني سأمسحه بمنديلي...

إن مثل هذا السلوك لم يكن عاديا، بل إنه نادر جدا ويشبه إلى حد ما أفعال السيد المسيح ويقف شاهدا مضيئا على ما للكلمة الإلهية الخلاقة من قوة ونفاذ، ولعل من المحتمل أن السيد جعفر وهو يقف بالباب في ذلك اليوم عادت به الذكرى إلى تلك الأيام الرائعة وهو في يزد، حيث كان يقف عند درجات المنبر بعد إلقاء خطبته كل يوم جمعة فيمر به جمهور غفير من الذين حضروا الصلاة واستمعوا إليه يعبرون له عن إكبارهم له ويغدقون عليه بكل حماس إطراءً وثناءً عارمين. أما الآن فما أشد وجه الاختلاف! ورغم أنه كان ضحية أشرس أنواع التحقير والإذلال، إلا أنه كان سعيدا لأن مولاه المحبوب كشف له الرحاب الواسعة ذات الجمال والجلال لحياة جديدة، وألبسه تاج العزة الأبدية فلا عجب إذا أن هذه المصائب لم تحجب إشراقة فرحته السماوية...

لقد كانت هذه المعاملة الشنيعة التي تعرض لها السيد جعفر مقدمة لفصل جديد من التعذيب الذي عاناه هو بنفسه وشاركه فيه صاحبه المرموق. ومن جملة ما عاناه

بأمر من الحاكم المعروف بشدة بأسه هو أن يُضرب على أخمص قدميه علنا. فكان يؤتى به كل يوم من زنزانته إلى بوابة أحد الموسرين في البلدة ليرى الناس هذا المشهد المؤلم، وهكذا كان آقا سيد جعفر يُضرب إلى أن يتدخل أهل المنزل أو أحد المارة -حسب ما كان متبعا في مثل هذه الأحوال- ليحرر المضروب مؤقتا بدفع فدية للمسؤولين عن تنفيذ العقوبة عليه. ويعود الأمر إلى حاله في اليوم التالي لينتقل هذا المشهد إلى موقع جديد على طول الطريق. وبعد مرور فترة من الزمن ونتيجة لهذا التعذيب اليومي تورمت قدما آقا سيد جعفر وأثخنهما الضرب وأصبحت رجلاه لا تقويان على حمله.

أما صاحبه الحاج محمد تقي، فكان قدره أكثر سوءا وأشد قسوة ففي كل يوم كانوا يقتادون الحاج إلى قصر الحاكم ويعرونه من ملابسه ويرمونه في بركة الماء، وعلى جوانبها كان يقف رجال يقبضون بالعصي الطويلة يهوون بها على جسده العاري بكل وحشية، وكانت الأوامر تقضي بأن يستمر الضرب حتى يصطبغ الماء بدمه.

ومهما يكن من أمر، فإن يد القدرة الإلهية التي عجنت هذه النفوس المدهشة وأنشأتها وبعثتها، بدأت الآن تضع حدا لهذا الطوفان العارم من المحن والآلام

الذي أوشك أن يبتلعهم، فكانت المشيئة أن يبقوا أحياء ليتلقوا أعاظم النعماء ولتتنور أبصارهم بمشاهدة الطلعة النورانية لحضرة بهاءالله.

رأت زوجة الحاكم حلما يدعوها إلى السعي للإفراج عنهما، ففاتحت زوجها وناشدته بحرارة أن يطلق سراح هاتين الضحيتين البائستين، إلا أنها فشلت. بل أن زوجها وبّخها وعنّفها على لينها وعاطفتها. فقررت أن تعمل سرا للوصول إلى غايتها غير آبهة بموقف زوجها القاسي.

وبمساعدة بعض أصحاب النفوس الخيرة، الذين تثق بهم وضعوا خطة وحددوا الترتيبات اللازمة بغاية الحرص واليقظة. وفي إحدى الأمسيات فتح باب السجن وأخرج الحاج محمد تقي والسيد جعفر في إعياء تام ثم وضعا على حمارين وأوكل أمرهما إلى سائس ليأخذهما بمنتهى السرعة إلى هرات وهي بلدة صغيرة خارج سلطة حاكم نيريز.

وصل المظلومان أخيرا إلى هرات في حالة شديدة من الإنهاك، وكان مجرد النظر إليهما يجلب الحزن والأسى للنفس مما أثار شفقة كبير القرية الذي استقبلهما وعاملهما بمنتهى اللطف.

بقي المظلومان في هرات عدة شهور يتعافيان من جراحهما الرهيبة ثم سافرا إلى يزد. ولما شاع بين الأحباء خبر نفي حضرة بهاءالله إلى العراق، عزم الحاج محمد تقي على التشرف بالمحضر الأنور ونيل بركاته المنهمرة، فقطع ما يقارب الألف وخمسمائة كيلومترا مشيا على الأقدام إلى بغداد حيث نال مراده. وقد نزلت "سورة الصبر" من القلم الأعلى تخليدا لذكراه.

وفيما بعد لحق آقا سيد جعفر بصديقه القديم. فتلك الأقدام التي تعرضت للتعذيب الوحشي لعدة أشهر لم تعجز عن حمله طول الطريق إلى مقر مولاه وهناك أغدقت عليه أيادي البهاء لطائف النعم السماوية...

ومع أن "سورة النصح" نزلت قبل إعلان الدعوة، إلا أنها لم تترك في النفس أي شك في مقام حضرة بهاءالله. إذ أنه يكشف في كل سطر منها عن هويته وينسبها إلى الله ويتكلم بلسان عظمته وقدرته، ويأتي على وصف ظهور الرسل والأنبياء من آدم إلى حضرة الباب معلنا أصلهم الإلهي مبينا حياة كل منهم وميزته ورسالته، ويشهد أنهم في كل عصر لاقوا من رجال الدين وزعمائه العذاب والاضطهاد، ويصور مشاهد آلامهم على أيدي عامة الناس ويذكر غلبتهم القاهرة على الأعداء والخصوم.

يستبق حضرة بهاءالله في هذا اللوح أيضا إعلان دعوته فينصح علماء البابيين ألا يركنوا إلى معارفهم وعلومهم بل يحثهم على تطهير قلوبهم حتى يدركوا القائم الموعود عندما تحين الساعة فيؤمنوا به ويعتنقوا أمره.

وفيه يشير حضرة بهاءالله إلى ألد أعدائه، وهو الشيخ عبد الحسين الطهراني، المجتهد الماكر الخدّاع الذي أرسل إلى العراق بأمر من الشاه حتى يقوم على ترميم الأماكن المقدسة الإسلامية في كربلاء، وكان معروفا لدى الدوائر الملكية بأنه رجل مثير للمشاكل سيئ السمعة لما يسببه من إزعاج وأذى. ولم يكن إسناد هذه الوظيفة إليه إلا بقصد إبعاده عن طهران.

وبمجرد وصوله إلى العراق، شعر الشيخ بالانزعاج لما شاهده من تنامي هيبة حضرة بهاءالله وهيمنته. فالفيض الدافق من قلمه الأعلى الذي ألهب حماس كثير من الناس ودفعهم إلى التضحية بأرواحهم في سبيله، والعشق الطاغي الذي ملك قلوب أصحابه، ثم الكيفية التي عبروا بها عن مشاعر ولائهم وإجلالهم لشخصه الكريم، وأخيرا ما كان يكنه له سكان بغداد من الإعزاز والتقدير - كل هذه الأمور مجتمعة، أيقظت في الشيخ عبد الحسين مشاعر الحقد والعداء وأشعلت في صدره نار الغيرة والبغضاء فنهض ليقف أمام حضرة بهاءالله وأتباعه بكل القوى الشريرة التي استطاع تجنيدها.

وما أن وصل القنصل العام للحكومة الفارسية المعين في بغداد، ميرزا بزرك خان، ذلك المكروه المغرور، حتى سارع، في عام ١٢٧٦هـ (١٨٦٠م) إلى مؤازرة الشيخ في مساعيه لقلع جذور الدين والقضاء على صاحبه.

و انصبّت أولى محاولاتهم على الإساءة لسمعة حضرة بهاءالله بنشر الأراجيف والأقاويل عنه لدفع السلطات المسؤولة في بغداد إلى إبعاده عن العراق. ولما تبين للشيخ عقم تلك المساعي ركز الاهتمام على إثارة العامة ضد حضرة بهاءالله. وتصف الكلمات التالية لحضرة شوقي أفندي بعض أفعال ميرزا بزرك خان:

"أما ميرزا بزرك خان فقد استغل نفوذه ليثير عداوة سفلة الناس ضد العدو المشترك ويحرضهم على سبه علانية عسى أن تقع حادثة انتقام تصلح لأن يبني عليها تهما كاذبة تمكنه من الحصول على الأمر المأمول بتسليم حضرة بهاءالله. ولكن هذه المحاولة فشلت هي الأخرى، فقد استمر حضرة بهاءالله يمشي في شوارع المدينة ليلا ونهارا دون حارس يحرسه رغم إشارات أحبائه وتوسلاتهم. وكان ذلك كافيا لأن يملأ صدور مضايقيه بالخوف والخزي. بل إنه كان يقترب منهم وهو يعلم بما يريدون في نفوسهم، ويمازحهم بشأن ذلك ويداعبهم ويتركهم مضطربين

عازمين على الانصراف عن تنفيذ ما كانوا يدبرون له من مكائد وخطط ولقد ذهب القنصل العام إلى حد أنه دفع مائة تومان لعربيد تركي يسمى رضا، وأعطاه جوادا ومسدسين، وأمره أن يبحث عن حضرة بهاءالله ويغتاله، ووعده ببسط حمايته وضمن له سلامته. وذات يوم علم رضا هذا بأن ضحيته المنتظرة يغتسل في الحمام العام، فغافل البابيين القائمين على الخدمة وواجه حضرة بهاءالله في غرفة الحمام الداخلية، وسرعان ما اكتشف أن شجاعته خانته فلم ينفذ مهمته. وبعد سنوات روى رضا أنه تربص لحضرة بهاءالله ذات مرة ومسدسه في يده. إلا أنه حين رآه يقترب منه غلبه الخوف وسقط المسدس من يده. عند ذلك أمر حضرة بهاءالله آقاي كليم الذي كان يرافقه أن يناوله المسدس وأن يصحبه إلى داره."

إلا أن كافة المساعي هذه قد آلت إلى الفشل الذريع مما دفع الشيخ عبد الحسين إلى إرسال سلسلة من الرسائل المليئة بالإنذارات إلى بلاط الشاه في طهران محذرا من تعاظم قوة حضرة بهاءالله، واستطاع في النهاية أن يحصل على تفويض كامل من الشاه يخوله اتخاذ كل الإجراءات الضرورية ضد البابيين بمساعدة العلماء الفارسيين في العراق.

وبمجرد استلامه ذلك التفويض دعا رجال الدين على اختلاف رتبهم ومراتبهم إلى مؤتمر يعقد في منزله وفيه أدان حضرة بهاءالله وأفعاله بشدة، واتهمه بتقويض

دعائم دين الإسلام، وطالب بإعلان الجهاد المقدس ضد البابيين في العراق. فبارك العلماء هذا المطلب إلا واحدا هو الشيخ مرتضى الأنصاري، كبير مجتهدي جماعة الشيعة، ذلك الرجل التقي المنصف الذي ورد ذكره في فصل سابق، حيث رفض المصادقة على خطتهم الشريرة وغادر الاجتماع فجأة.

وكان حضرة بهاءالله قد دعا الشيخ عبد الحسين، في وقت سابق، لملاقاته وجها لوجه ليثبت له أحقية أمره. وقبل الشيخ الدعوة في البداية إلا أنه وجل من مواجهة التحدي ولم يحضر إلى المكان المحدد. وعلى أية حال، فإن العلماء قرروا في مؤتمرهم إرسال الحاج الملا حسن عمو، ذلك الشخص التقي الورع المعروف بمشاعره النبيلة، لمقابلة حضرة بهاءالله وكُلِف بطرح أسئلة تهدف إلى التثبت من أحقية رسالته. فطلب الحاج الملا حسن ترتيب مقابلة مع حضرة بهاءالله من صديق لحضرته وأحد المعجبين به الأمير زين العابدين خان الذي كان مواظبا على زيارة منزل حضرته، وفي اليوم المحدد اصطحبه الأمير بنفسه إلى منزل حضرة بهاءالله.

وما أن وجد الحاج الملا حسن نفسه في محضر حضرة بهاءالله حتى شاهد تموجات بحر بيانه وشعر بأنه نقطة من محيط عرفانه، وما أن تمت الإجابة عن أسئلته بمنتهى الذكاء والوضوح حتى جازف وصرح لحضرة بهاءالله أن العلماء يعتبرون أن

القيام بمعجزة هي فصل الخطاب ودليل حاسم على صدق دعوته، إلا أن حضرة بهاءالله نطق بالكلمات التالية ردا على طلبه:

"مع أنه ليس لك أن تسأل هذا، لأن الحق هو الذي يمتحن الخلق، وليس الخلق هم الذين يمتحنون الحق، إلا أنني أقبل هذا الطلب... وعلى العلماء أن يجتمعوا ويتفقوا جميعا على معجزة معينة، وعليهم أن يكتبوا بأنهم لن يخامرهم الشك في أمرنا بعد الإتيان بها، وأنهم يقرون ويعترفون بصحة دعواي. وعليهم أن يختموا هذه الوثيقة ولتأتني بها. والشرط الذي أشترطه عليهم هو إن تمت المعجزة لم يبق لهم مجال للشك، وإلا حقّ لهم أن يتهمونا بالخداع."

وجد الحاج الملا حسن في هذه الإجابة رضاء للنفس، فنهض وقبّل ركبة حضرة بهاءالله بكل احترام ووعد بنقل كلماته للعلماء. ولكن مجمع العلماء قرر عدم الاستجابة لهذا التحدي ولم يلاحقوا هذا الأمر. وبواسطة الأمير زين العابدين خان، نقل الحاج الملا حسن هذا القرار لحضرة بهاءالله، الذي صرح بمجرد سماعه هذه الأخبار بقوله المبارك:

"بهذه الرسالة الشافية الوافية التي أرسلناها أظهرنا معجزات جميع الأنبياء ودافعنا عنها. ذلك لأننا تركنا حرية الاختيار للعلماء أنفسهم، وتعهدنا أن نأتي لهم بما يجمع عليه رأيهم."

بعد فشله فشلاً ذريعًا في الوصول إلى مآربه، قرر الشيخ عبد الحسين ممارسة ضغط أشد على الحكومة الفارسية. فأرسل للسلطات المسؤولة في طهران، بمساعدة شريكه الماكر، ميرزا بزرك خان، مجموعة من التقارير الملفقة والمبالغ فيها، وحثّ تلك السلطات على اتخاذ خطوات لإبعاد حضرة بهاءالله عن العراق.

ولا عجب أن يصف حضرة بهاءالله في "سورة النصح" ذلك الشيخ، الذي سعى بكل عزم إلى إطفاء نور الله وإهلاك صاحب رسالته، بـ"**الخسيس**" و"**الدساس**" و"**الخبيث**" والذي "**جرد سيف نفسه على وجه الله**" و"**وسوس الشيطان في نفسه**" و"**الذي يفر الشيطان عن كفره**" و"**الفاجر**" و"**ما من ظلم وما من فسق إلا وقد بدأ من هذا الشقي وسيعود كل ذلك إليه**".

وفي فقرة من "سورة الملوك" يخاطب حضرة بهاءالله سفير الدولة الفارسية في الآستانة ويلمح إلى ميرزا بزرك خان، القنصل الفارسي العام في بغداد، حيث يتفضل:

"وكنا فيه إحدى عشر سنين إلى أن جاء سفيركم الذي لن يحب القلم أن يجري على اسمه وكان أن يشرب الخمر ويرتكب البغي والفحشاء وفسد في نفسه وأفسد العراق ويشهد بذلك أكثر أهل الزوراء لو تسئل عنهم وتكون من السائلين. وكان أن يأخذ أموال الناس بالباطل وترك كل ما أمره الله به وارتكب كل ما نهيه عنه إلى أن قام علينا بما اتبع نفسه وهواه وسلك منهج الظالمين. وكتب إليك ما كتب في حقنا وأنت قبلت منه واتبعت هواه من دون بينة ولا برهان مبين. وما تبينت وما تفحصت وما تجسست ليظهر لك الصدق عن الكذب والحق عن الباطل وتكون على بصيرة منير. فاسئل عنه عن السفراء الذين كانوا في العراق وعن ورائهم عن والي البلدة ومشيرها ليحصحص لك الحق وتكون من المطلعين."

وأخيرا كان لمكائد الشيخ ودسائسه، والجهود التي بذلها القنصل العام، تأثيرها النافذ لدى الشاه الذي أمر وزير خارجيته ميرزا سعيد خان أن يبعث إلى الحكومة العثمانية التماسا يطلب فيه نقل حضرة بهاءالله من بغداد، وفي غضون تلك الفترة اشتد العداء ضد حضرة بهاءالله الأمر الذي دعا السيد ميرزا حسين المتولي، وهو بابي سيئ السمعة، أن ينصحه في رسالة خطية بلزوم بيته من أجل سلامته، فأنزل حضرة بهاءالله لوحًا مباركًا باللغة الفارسية يعرف بـ"لوح "شكر شكن شوند".

كتاب ظهور حضرة بهاءالله، أديب طاهرزاده، المجلد ١